من تراب الطريق! (٢٦٧) الساذج الخالد (*)

هذا العنوان هو لمقال كتبه " مالكولم فوجان " ونشرته الريدرز دايجست منذ أكثر من خمسين عاما، عن فنان رائع ظلمه معاصروه فلم ييأس ولم يتوقف حتى احتلت أعماله ركنا فى سجلات الأعمال الفنية الخالدة . ولكن لماذا هو ساذج ؟ هذه فيما يبدو كانت نظرة الناس .. فالرجل بسيط يعيش فى مسكن من غرفة واحدة، بأحد أحياء باريس الفقيرة، لا تبدو عليه معالم النجابة، ولا فيه أى ميل للاستعراض، فقد وضع نفسه فى بساطة فى خدمة جيرانه، يكتب لهم الخطابات لمن لا يستطيعون الكتابة، ويعلم البلاغة والعزف على الكمان والماندولين للأطفال والكبار أحيانا، ولا يكاد يقتنص لنفسه إلاّ ساعات قليلة متباعدة يقضيها فى رسم صور لم تجد لها سوقا فى ذلك الأوان .

الساذج الخالد هو هنرى روسو .. مخلوق رقيق، طيب القلب، برىء مع الناس فى معاملاته، ولم يشعر بالضيق حين استقبل الناس بالضحك لوحته : " الغجرية النائمة " .. ظن ضحكهم تعبيرا عن الرضا والسرور

ولم تمض سنوات، إلاّ ولم يعد أحد يضحك على صور روسو التى أخذت تتتابع فى تواصل وتميز لافت، حتى عادت صورته الشهيرة : "الغجرية النائمة " - فنالت تقديرا هائلا واعتبرت إحدى الدرر فى متحف نيويورك للفن الحديث الذى ابتاعها من هنرى روسو بمبلغ (٢٥) ألف دولار .

(*) المال٢٠٠٩/٥/٢٧

هذا الثمن كان رقما فلكيا فى حياة روسو .. فمنذ ولد فى عام ١٨٤٤ لسمكرى فقير .. كان من النادر أن يكون بحوزته أكثر من ١٢٥ فرنكا .. وعاش حياة عسيرة وعمل بأعمال بسيطة واشترك فى الحرب الفرنسية البروسية، ولولا شغفه العميق بفن الرّسم، لما استطاع أن يفسح له أى مكان أو نصيب فى حياته .. عندما بلغ الأربعين قرر أن يعود إلى الرسم بانتظام وإصرار، وأخذ يرسم فى حرص عنيد ودقة شديدة، لا يصرفه انعدام أو تفاهة المقابل، ولا يوئسه أن يبيع لوحة أنفق فى رسمها شهرين أو ثلاثة مقابل (٣٥) أو (٤٠) فرنكا لا تكفى ثمن اللوحة الخام والألوان، ولكن الموهبة كانت تدفعه ومعها إصراره واقتناعه بأن يفعل شيئا ذا قيمة .

هذا الساذج الخالد، دفعته موهبته إلى الجلوس يوميا فى مرسمه من الفجر حتى حلول المساء، وفى هذا الهدوء الذى يشبه هدوء القديسين أبدع روسو عشرات اللوحات الرائعة .. " مكتب تحصيل المكوس " و " ضفاف نهر الأويز "، و " الصيف والمرعى " .. وفى سنواته الأخيرة بلغ الغاية فقدم فيها سلسلة رائعة من مشاهد الغابة .

اللافت أن هذا الفنان الأصيل احتمل فى صبر تجاهل الناس الذين ظلوا لوقت طويل ينظرون إليه على أنه أصغر من أن يكون فنانا متمكنا، وربما ظل بعضهم ينظرون إلى رسمه باستخفاف حتى بعد أن بدأ النقاد والخبراء يلتفتون إليه ويتوافدون على مرسمه .

ومع ذلك لم تفارق البراءة ولا الرضا - هذا الفنان المبدع، وظلت ماكينة موهبته تفرز بلا كلل إلى أن مات سنة ١٩١٠ ليدفن بمدافن الفقراء خارج باريس، ولكن شهد له قبل أن يموت الفنان الكبير بيكاسو، الذى أقام قبل وفاة روسو بعامين - مأدبة تكريم دعا إليها جميع الفنانين المحدثين فى باريس للاحتفال به .

فى البساطة تكمن العظمة، وفى العزيمة والإصرار يكمن سر النجاح .. هذا إنسان فنان استخف به المحيط فلم ييأس، وعاندته الظـروف فلـم يستسلم، وآمن بأن لديه ما يقدمه ففعل، فلم تنطو صفحة حياته بموته، بـل ظلت أعماله تزين المتاحف الفنية دليلاً على أن المواهب أبداً لا تموت !